بين المعرّي والخيّام

فكرة الموت ، ومصير الاجساد

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

الموت يخدن الحياة ، رافقها منذ نشأتها وجاريها حتى انتهائها ؛ فلا علد لها غصن الا قصفه ، ولا تتفتح لها زهرة الا نفخ عليها سمومه ، ولا تينع لها ثمرة إلا جناها . حتى اصبح غاية كل حساس متحرك ، ومآل كل نام ناشئ ، واضحى الأحياء ابناء الموت

هذه السيطرة المطلقة على كل مظاهر الحياة ، شعر بها الناس منذ نشأة الانسانية ، فحاروا في سلطتها ، واقاموا يفكّرون فيها القرون المديدة ، دون ان يجدوا للنجاة منها سبيلاً . يتراءى شبح الموت للسيد القادر سلطته ، الغنيّ باموالهِ ، السعيد في حياته ، فيقلق عليه راحته ، ويتهدده بانقضاء سعادته ، فيخافه ويجتهد بتأخير اجله ؛ ويبدو الشبح نفسه للصعلوك الفقير التاعس ، فيرى فيه خير مخلّص من متاعب الحياة ، ولكنه لا يلبس ان يرى وحشة هذا الطريق فيرتجف ويظلّ حائراً بين الرغبة والرهبة . يشعر بدنوّ الموت الفتى المغرور بمظاهر العالم ، المنغمس في حمأة الملاهي والملذّات ، فيخشى سرعة حلول الأجل ويجتهد عبثاً في الهرب ؛ ويأخذ الشعور نفسه من روع الناسك المتعبّد ، فيرجو خلاص نفسه من الجسد الماديّ ، ولكنها يهاب عبور ذاك الجسر الهائل ولو الى الجنّة . . يدنو الفيلسوف المتشائم ، الشاكّ ، من عتبة القبر فيتراجع رهباً مع كل ما في نفسه من يأس من الحياة ، ورغبة في كشف ما وراءها ؛ وكذلك يسير المتفائل المؤمن ، الواثق بالآخرة الصالحة ، الى قبره بين الخشوع والتردّد . كثيراً ما تختلف آراء الناس في الموت ، وكثيراً ما تتباين حالاتهم تجاهه . ولكنهم مجمعون على التفكّر فيه ، وعلى الرهبة منه

سلطان قادر ، آمر لا مردّ لحكمه، اوقع الرعب في قلوب البشر منذ البدء وسيوقعه الى الانتهاء. وكان من الطبيعي ان يكون وقعه اشدّ تأثيرًا في قلوب الحسّاسين من الناس ، ولاسيما الشعراء. ولهذا كان الموت من اخصب المواضيع الشعرية ، واكثرها مرونة ، فعلق بـه الكثيرون من شعراء الشرق والغرب . ولعلّ من فتن به خاصّة في آدابنا ابو العتاهية وابو العلاء.

اما ابو العتاهية فاكثر من تصوير الفنـاء ، واهوال الموت. ولم يكن له فكرة شخصية في مصير الاجساد بعد الدفن. ولهذا لا دخل له في كلامنا اليوم. واما ابو العلاء فعليه مدار بحثنا . على ان هنـاك شاعرًا فارسيًا اولع بالموضوع نفسه ، وافاض عليه كثيرًا من تأثيراته الشخصية، وتصاويره الطريفة ، الا وهو عمر الخيّام الذي عاش نحو نصف قرن بعد المعرّي (١) والذي يعتبره الكثيرون آخذًا عنه ، وناسجًا على منواله فيما يختص بمصير الأجساد

ان يتفق المعرّي والخيّام في تصوير اهوال الموت : وسلطانه القاهر ، ووحشة القبور ، فهذا ما لا غرابة ، ولا حاجة الى نسبته الى النقـل ، وقد قدّمنا ان الموت من المواضيع العامّة الشائعة بين الشعراء . اما ما يستحقّ درسًا خاصًا ، فمقابلةً بين الشخصيّتين ، فهو ما نسميه بمصير الأجساد ، وما تتفق فيه آراء الشاعرين من ذكر مآل الرفات بعد الموت ، وتحوّله الى تراب ، وخزف ، وآنية تتفرّع عنها. ونحن نرى ان الخيّام استفاد من المعرّي ، في هذا الموضوع ، وهو كان يُتقن العربية وله فيهـا تآليف (٢) ، وعاش بعيد موت المعرّي في عصر شاعت فيه شهرته ، وتنوقلت اخباره ، وسارت آراؤه . كل ذلك يظهر من المقابـلة التي سنأتي بها بين اقوال الشاعرين فنعرضها بطريقة وضعية ونترك للمطالع حقّ الحكم فيها ، فشاركتنا في الرأي او معاكستنا

(١) عاش المعرّي من سنة ٩٧٣ الى سنة ١٠٥٧ في معرّة النعمان وبغداد ، فالمعرّة ، وقضى اكثر حياته (١٠٠٩ - ١٠٥٧) في بيته معتزلًا. وسمّى نفسه رهن المحبسين ، اي حبس بيته وعماه. اما عمر الخيّام فعاش في نيسابور ، وبلخ ، وبعض مدن فارس ، واشتغل في العلوم الرياضية والفلكية ، وتوفي في نيسابور سنة ١١٢٣

(٢) من تآليف الخيـام بالعربية كتاب الجبر والمقابلة الذي ترجمه المستشرق ويبكه (Woepcke) ونشره سنة ١٨٥١ ، وقد نُسب اليه ابيات شعرية بالعربية ايضًا .

ولنبدأ الآن بذكر آراء الشاعرين في الموت اولاً:

اول ما يلفت النظر بين الشاعرين اتفاقهما في ذكر سلطة الموت ، وشمولها الخلق جميعاً،وذلك امرٌ طبيعي. فيقول ابو العلاء ، وملْ جوانحه الرعب والأسى:

انبأنا اللبّ بلقيا الردى : فالنوحُ من صحةِ هذا النبأ !

ولكن لا غوث من ذلك،بل

يُهال التراب على من ثوى ! فآهٍ من النبأ الهائلِ !

ثم يتسع تحققه امثال الناس،فيراهم ينزلون بطن الارض ولا يرى احداً يعود، فيصرخ متمنياً المستحيل :

فليت الفتى كالبدر، جُدِّد عمره ، يعود هلالاً كلما فني الشهرُ !

ولم نرَ بطنَ الارض يأتي لظهرها رجالاً ، كما يأتي الى بطنها الظهرُ !

وهو اشبه بتحقق الخيام ، اذ يقول عن الفلاسفة والحكماء الاقدمين :

وهم اليومَ ، في الثرى ، ساكتونا لا خطاب يأتونه ، صامتونا ،

ملْ افواههم ترابٌ ، فما هم بعد يأتون في الأنام خطابا ! (١

وينتقل الى ذكر من فارقوه من الاصدقاء العديدين فيصيح برعب واسف ، متحققاً فراغ البيت ، وامتلاء القبور :

كم حبيب كان الجليس الأنيسا ، كلما جئتُ ، او طلبت الكؤوسا !

كم حبيبٍ ! سلِ الثرى والرموسا !

واحداً اثر واحدٍ ودعوني ونأى يلهب المُنى اودعوني

فرغ البيت ، والمقابر ملأى ، وعيوني الملأى تفيض انسكابا ! (٢

ويشبه اسى الخيام هذا خوف المعري على حياته ، اذ يصور انقضاء اجله ، واهتمام الناس بحفر قبره ، بتلك الصورة المفزعة المرعبة فيقول :

---

١) رباعيات عمر الخيام معرّبة نظماً بقلم وديع البستاني . النشيد الاول ، العدد : ٢٣ - وسنشير في شعر الخيام الى العدد والنشيد من ترجمة البستاني . وهناك ترجمة لرباعيات الخيام ظهرت في مصر بقلم محمد السباعي . على اننا استعملنا ترجمة البستاني لانها اقدم واشهر . - اما ابيات المعري فاكثرها من اللزوميات ولم نرَ لزوماً للاشارة الى مأخذها الدقيقة .

٢) النشيد : ٤ ، العدد : ١٧

يكرّ الحولُ بعد الحول مني ، وتلك مصارعُ الاقوامِ حولي
كأني بالألى حفروا لجاري ، وقد اخذوا المعاول واتحوا لي!

على ان الشاعرين يسكنان الى القضاء والقدر والى ان الموت محتّم على كل حي لا مهرب منه ، بدليل الآية القرآنية: «اينما تكونوا يُدرككم الموت »(١ ذاكرين ان الانسان لا يموت الا في ساعته بدليل الآية الاخرى : «فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون » (٢ فيقول المعرّي :

كم هلكت غادةٌ كعابٌ وعمرت امها العجوز !
احرزها الوالدان خوفاً ، والقبرُ حرزٌ لها حريز
يجوز ان تبطئ المنايا ، والخلد في الدهر لا يجوز !

ويردف عن نفسه :

ان يرحل الناس ، ولم ارتحلْ ، فمن قضاءٍ لم يُفوَّض اليَّ

فيدعوه الخيّام الى التسليم لله وقضائه :

فاستسلّم لربه تسليما فهو من كان بالمصير عليما
منذ كانت هذي البرايا سديما !
خُطّ ما خُطّ من سطور القضاء! لا تحاولْ ابدالَ ياءٍ بباء
فبنو الباء يلحدون شيوخاً ، وبنو الباء ألحدوا اطفالا !(٣

ولكن هذه الغاية التي لا مناص من السير اليها ، هل هي حسنة ام سيئة ؟ نافعة ام ضارّة ؟ مرغوب فيها او مصدوف عنها ؟ هذا ما اضطربت فيه افكار المعرّي خاصّة ! فحار طويلاً ولم يهتدِ . فهو تارة يرى في الموت الراحة المنشودة التي تنسي الانسان همومه ، واوجاعه ، وتُنئيه عن الناس ومطالب الحياة المتعدّدة فيقول :

رقدة الموت ضجعة يستريح الجسمُ فيها ، والعيشُ مثلُ السهادِ
تعبٌ كلها الحياةُ ! فما اعـ جب إلّا من طامعٍ في ازديادِ !

---

١) القرآن : سورة (٤ [النساء] ٨٠)
٢) القرآن : سورة (٧ [الأعراف] ٣٢)
٣) النشيد : ٣ ، العدد : ٢١

ويقول :

لعل موتاً يريح الجسم من نصب ! ان الفناء هذا البقاء مقترن

فهو يتمنى الموت ، وهذه آماله فيه :

أصبح في لحدي ، عن وحدتي ، لست الى الدنيا بمحتاج

متى غدوت ببطن الارض مضطجعاً فثم افقد اوصابي وامراضي !

كأس المنية اولى بي ، واروح لي من ان أكابد اثراء واحراجا

العيش افقر منا كل ذات غنى والموت أغنى ، بحق ، كل محتاج

اذا حياة علينا ، للأذى ، فتحت باباً من الشر ، لاقاه بارتاج

لكون خالك في رمس أعز له من ان يكون مليكاً عاقد التاج

الملك يحتاج آلافاً تناصره والميت ليس الى خلق بمحتاج !

اغنى المنازل قبر يستراح به وافضل اللبس ، فيما اعلم ، الكفن !

فالي اخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك !

يريحك من عيشة مرة ومال أضيع ، ومال ملك !

ولكنه يخاف ، رغم اعتباراته ، لأن

وخوف الردى آوى الى الكهف اهله وكلف نوحاً وابنه عمل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم ، وقد وعدا ، من بعده ، جنتي عدن !

ولأن طرقه موحشة مخيفة ، كيف لا و

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية ، لاعتراها الناس افواجا

وكان من اتت الدنيا اليه اذى يؤمها تاركاً للعيش امواجا !

ولهذا فهو دائم الاضطراب ، تشتد عليه صروف الحياة فيدعو ملاك الموت ، حتى اذا سمع حفيف اجنحته ، لجأ الى شعار البشر الخالد وهو : «العذاب ولا الموت !» ثم لا يرى في حيرته من ملجأ الا الله ، فيتكل على حكمته ، ويقول :

ان كان نقلي عن الدنيا يكون الى خير وأرحب ، فانقلني على عجل

وان علمت مآلي عند آخرتي شرًا وأضيق، فانساً ربّ، في اجلي!

يذكر الضيق والسعة خصوصاً لان نفسه

... تهوى الرحب في كل منزلٍ فكيف بها إن ضاق في الارض قبرها

اما عُمر الخيّام فلم يكن ليتردّد امام الموت تردّد المعرّي، وهو لا يذكره الا قاطعاً للذات، ومفرّقاً للاصدقاء، فيتوقف هنيهة حائرًا في سرّه رغم البحث والدرس، ويقول:

واجليتُ الغوامض المبهماتِ ولقيتُ المغالقَ الدائراتِ
غير أن الآجال، والموت فيها، ذاك سرٌّ لم أنضُ عنه نقابا!(١

ثم لا يلبث ان يستنتج من ذاك نتيجة ابيقورية قد لا تمرّ في ذهن المعرّي، فينادي ان اغتنم فرصة البقاء، والهُ ما شئت لانك سوف تموت،

وبذاك الحجاب سوف تمرُّ، حيثُ سرٌّ يبدو لديك وسرُّ،
فاغتنم فرصة البقاء فان المو تَ ما عوّد الفتى إمهالا!(٢

***

هذه مجمل آراء الشاعرين في الموت وهي لا تعدو رأي كل فردٍ اختبر الحياة وتحقّق غايتها، فعرف ان الموت جسرٌ لا بدّ للناس من عبوره، كلّ في ساعته. ولكن ما وراء هذا الجسر؟ وما يكون مآلُ القوم بعد عبوره؟ هذا ما وقف دونه الشاعران ففكرا فيه طويلًا، فنجحا مرة، وفشلا مرة، وشكّا في نجاحهما وفشلهما مرارًا.

اما مصير الأرواح فيتفق الشاعران في الشكّ فيه، رغم ما يظهر من اقوالهما بعض الاحيان من اتباع تعاليم الدين، والايمان بالبعث. وانما تلك لمحات من نور، في ظلام الشكّ المطبق، يسيران بضيائها دقائق معدودة، يتذكر فيها الخيّام ما تعلّمه من المبادئ الدينية، فيندم على خطاياه، ويشاهد الخالق يوم الدينونة، في عظمته وجلاله، فيخشع متأسفاً ويصلّي:

انت يا عالمًا بذات الصدور، وقابلَ العبد الكثير الفتور،
تُب لخيّامَ، قبل يوم النشور،

١) النشيد: ١، العدد: ٢٨ — . ٢) النشيد: ٣، العدد: ٣٦

وازعاً زاجراً يكفّ يديه عن كؤوس مشعشعات لديه
فهو فيها جم كل هيام ولديها يحيي الليالي الطوالا (١

ويرتفع المعرّي في ذاك الايمان الصالح ، والاعتقاد القويم ، الى درجة المناضل عن صحّة البعث ، المدافع عن حقيقة النشور ، فيأتينا بالبيتين الرائعين اللذين ظهرا خير سابقة لما يسمّونه في الآداب الفرنسية « رهان پسكال » . وهما :

قال المنجّم والطبيب كلاهما : «لا تحشر الاجسام!» قلت : «اليكما!
ان صحّ قولكما ، فلست بخاسر! او صحّ قولي ، فالخسار عليكما!»

ولكنها لمحات من نور في جوّ من ظلام الشكّ ، كما قلنا . فلا تكاد تنطفئ — وسرعان ما تنطفئ — حتى يعود كلٌّ منهما الى جحوده وإنكاره للقيامة ، فيقول الخيّام يائساً :

فودّع ، ولا تدع في الربوع مُنىً تلقاه بعد الرجوع !
لا رجوعٌ ولا عمالة إنّا سوف نطوي هذا السبيل ارتحالا ! (٢

ويردّد استاذه المعرّي ، بشيء من التشاؤم المرّ :

ضحكنا ، وكان الضحك منا سفاهةً ، وحقّ لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطّمنا الأيام حتى كأننا زجاجٌ! ولكن لا يعاد لنا سبكُ!

فهما ، تجاه مصير الارواح ، على حدّ قول ابي العلاء نفسه :

اما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح أنّى تسلكُ !

للتراب مآل الجسوم ! حقيقة أيدها الاختبار ، وفتن فيها الشاعران فلم يتوقّفا عندها جامدة باردة ، بل توسّعا فيها مما شاء خيالهما الفسيح ، وحسّهما الدقيق . فكان أوّل آرائهما في ذاك التراب ، الجسمي الأصل ، عاطفة اشفاق ورحمة تبدو من شعر المعرّي اذ يقول :

خفّف الوطء ! ما اظنّ اديم الأر ض إلّا من هذه الاجسادِ !
سر ان اسطعت ، في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبادِ !

(١) النشيد : ٣ ، العدد : ٣١ (٢) النشيد : ٣ ، العدد : ١٢

وتتجاوز عاطفة الخيّام الإشفاق الى الصدَقة والإحسان ، فيجود على تلك الاجساد البالية بما تملكه يداه ، وما تملك يدا سكّير سوى الخمر ! فيقول ، مشيراً الى عادة سُقاة الفرس بإهراق قليل من الخمر ، قبل تقديم الكاس :

ما جُزافاً ما قد اراق السُقاةُ ! لا لعمري ! بل تلكم صَدَقات !
انما الترب يا ندامى رفاتُ !
فليريقوا ! فتلكمُ القطراتُ لكبودٍ تذيبها الحسراتُ
وليريقوا ! لعلّها منعشات لوعةً في الثرى تؤجّ التهابا ! (١

غير ان ذاك الخيال المولَّد في الشاعرين لا يقف عند التراب ، وهو المصير الاول لكل حيّ ، بل يتجاوزه الى ما يؤخذ من التراب من الآنية الخزفية ؛ فتكون هذه المحطة الثانية لتلك الاجزاء الجسدية المقسّمة هباء بعد الموت ، على حدّ قول الخيّام :

ذا مصير الورى : أناسٌ ، فتربٌ ، فأوانٍ كانوا لها اصحابا

وهنا يدخل الشاعر الفارسي الى معمل الخزّاف ، فيسمع اصوات الارواح ترتفع اليه من خلال الطين المجبول ، فيصيح :

امس ابصرتُ جارنا الخزّافا يجبلُ الطينَ كيف شاء اعتسافا
ويكيل المداس منه جُزافا !
وكأني أسمعت ، بين يديه ، صوت ذات مظلومة تشكيه :
« آه رفقاً ! فانت طينٌ وماء ، انما المرء ، لا تسيء المذابا ! » (٢

ولم تكن هذه الرائعة الا توسيعاً لما صوّره المعرّي في المعنى نفسه ، بقوله :

فلا يمشِ فخاراً ، من الفخر ، عائدٌ الى عنصر الفخّار للنفع يُضرَبُ
لعلّ إناءً منه يُصنع مرّةً فيأكل فيه ، مَن اراد ، ويَشرَبُ
ويُحمل من ارضٍ لأرضٍ ، وما درى فواهاً له ، بعد البلى ، يتغرّبُ !

وقوله في التصوير نفسه :

تيمّموا بترابي على فضلكمُ ، بعد الهمود ، بوادي باغراضي
وان جُعلت ، بحكم الله ، في خزفٍ يقضي الطهورَ ، فاني شاكرٌ راضي !

---

١) النشيد : ٥ ، العدد : ٣٣ ٢) النشيد : ١ ، العدد : ٣١

ويرى المرّي غير ذلك من منافع التراب المكوّن من اجسام ، كانت جديرة بالصون ، وقد صارت في طلاء الجدار ، فيقول :

كم من رجالٍ جسومهم عفر تُبنى بهم دار عليهم الجُدرُ ! ¹

ويقول ايضاً ، والصورة فيه اروع ، لما فيها من التخصيص والتضاد :

لعلّ مفاصل البناء تضحي طلاء للسفينة والجدار !

الى هنا ينتهي الشبه ، على ما نرى ، بين المرّي والخيّام . فيقف الشاعر العربي لدى هذه الاعتبارات المحزنة ، المميتة ، اللاى بالهيبة والروع . ويتجاوز زميله الفارسي تلك المحطة من مصير الاجساد الى ما وراءها ، فيصوّر الناس يصبحون غذاء للنباتات

واصولاً يغذون للاشجار !

فيتراكمون بعضهم فوق بعض في الكروم والبساتين ، حتى انه يصف الخمرة بانها .

بنت كرمٍ كريمةٌ ، وابوها رجلٌ صدرُه يضمّ رجالا ! ¹

ثم لا تلبث تلك الاغذية النباتية ان تحيد بدورها الى نبات منوّر ، فتصبح ثغور الاموات ثغوراً جميلة من الازهار ، وتتحوّل دماء الملك المقتول الى وردة ناضرة ، والخال الجميل في الخد الى زهرة من البنفسج ، وذلك قوله :

حيث تلقى الورد النضير الجميلا أليك منساك خرّ قتيلا !
ولكم نبات ما اقتطفت بنفسج ، وزرقته انه بين موشّح ،
وهو خالٌ نام بخدّ فتاةٍ بدر حسن في قامة القبر غابا !²

ولا يشكّ في انه هو ايضاً سيتحوّل الى تلك الاعشاب والازهار ، ولكنه يشكّ في جمال تلك الازهار التي ستخرج من جسده ، فيقول :

ليت شعري ، اذ نحن في الروض زهرٌ ، ايّ عين نروقها إعجابا !

---

١) النشيد : ٣ ، العدد : ٣ ٢) النشيد : ١ ، العدد : ١٩

وعلى كل فهو يتمنى ان يطلّ من ترابه نبتاً بعد الفينة والفينة من السنين فيحيي الربوع والاطلالا !

ولا ينسى قبل موته ، ان يرجو من نديمه ، متابعة سكب الخمر على زهور قبره ، فيشملها كما كان حال حياته ، وهو يوصيه بهذا المقطع الرائع :

يا نديمي ، قد آن موت النديم ! فاذكرني ذكر الصديق القديم
وابكيني بدمع بنت الكروم

وبكأس الرحيق ، قف فوق قبري واسكب الخمر فوق عشب وزهر
فرفاقي ، اذ ذاك ، زهرٌ وعشبٌ ، وانا الشيء كان كوناً ، وحالا ! (١)

* * *

هذا ما رأيناه من الطريف في الموت ومصير الأجساد، عند المعري والخيام. ونترك للمطالع الحكم الاخير ، ومشاطرتنا الرأي في ان الخيام استفاد من المعري فيما يختص بمصير الاجساد الى التراب والخزف والانية . ولكنه لما كان اوسع خيالاً ، وادق حساً ، واوفر شاعرية ، جاوزه الى التحولات الاخرى من جذور واشجار ، ونبات وازهار ، فنال السبق في ذلك ، وفتح في الآداب الشعرية باباً جديداً لتصور نهاية الانسان . فتنقلت فكرة التحول الى النبات والزهر بين الشعراء، وقررها علم الكيمياء بدورة الازوت في الطبيعة ، وكان فيها من الروعة ، وجمال التصوير ، واثارة التأملات ما كفل بفوزها فسارت في الشعر العالمي . ولعل آخر ما اطلعنا عليه من نوعها في الشعر العربي ، قول فوزي المعلوف (شاعر في طيارة) متشائماً في منفعة الانسان :

وهو لا ينفع البسيطة ، إلا حين يثوي في القبر ، بين رحابه ،
حين يمتصه الأديم ، فيمضي منه بعض الغذا الى اعشابه .
ليت شعري كل النبات الذي في الـ كون ، من زهره الى ابلابه ،
ليس الأعصير اجسام من ماتوا ، فزانوا الثرى باجمل ما به !

---

(١) النشيد : ٢ ، العدد : ٢٥